حول مناظرة طه حسين ورئيف خوري

مخاض أدب جديد

بقلم عبد الله عبد الدائم

لا ندري ما الذي دفع الاستاذ رئيف خوري إلى ان يقرر ان الرأي الذي حمل الدفاع عنه في تلك المناظرة بينه وبين عميد الادب العربي الدكتور طه حسين هو أهون الرأيين والى ان يرى أن موقفه أسهل الموقفين وان من شأنه أن يمكّن لصاحبه فيجعل مقامه في الدفاع حصيناً .

قد يكون الدافع الى ذلك رقة في الحاشية أراد الأستاذ رئيف خوري منذ البداية ان يقدمها بين يدي مناظره ، احتراماً منه لمناظر يقصر عن شأوه كل احترام . وقد يكون الدافع أمراً أبرع من هذه اللفتة الناعمة ، وهو ان يبشر منذ البداية بصواب رأيه وأن يوهم السامع أن مناظره لم يصطنع الموقف المضاد الا من قبيل اقتحام الصعب ، ولو كان خاطئاً .

وأياً كان الامر فمما لاشك فيه أن موقف الأستاذ الخوري أصعب الموقفين واشقها منالاً . ذلك ان الفكرة التي اصطنعها في مناظرته ، والتي يصطنعها كثير من الكتاب المحدثين اليوم تلقى دوماً ما تلقاه الاشياء الجديدة من مقاومة وتمنع . وهي ككل الافكار الجديدة تواجه امامها تراثاً من العادات التي ألفها الناس ومن المنازع التي حُفرت في نفوسهم ، ومن الصعب عليها أن تتغلب على ما في تلك العادات وهذه المنازع من عنف العادة واستشراء السنّة وثقل الأعمدة القديمة .

ولا تتجلى هذه المقاومة للقديم من الجديد عنيفةً صارمة في شيء كما تتجلى في هذه المسألة التي يسوقها المحدثون اليوم والتي دار حولها موضوع المناظرة : لمن يكتب الأديب ؟ وما هي رسالة الأدب ؟ وهل تعني حرية الاديب ألا يلتزم أي شيء ، أم أن هـذه الحرية نفسها تستلزم أن يلتزم قضية وينافح عن فكرة ؟ وهل يُسأل عما يكتب ، أم هو في حلٍ من كل مسؤولية ؟ الى ما هنالك من اسئلة مماثلة تدور كلها حول محور واحد ، قوامه التساؤل عن رسالة الاديب أولاً وأخيراً .

فمما لا شك فيه أن مجرد طرح مثل هذه الاسئلة يبعث في كثير من النفوس مقاومة يسقونها مما ألفوه عن السنّة الادبية الشائعة . وأول ما يواجهون به مثل هذه التساؤلات هو أن يتهموها أنها ليست ذات موضوع ، وأنها إثارة لمشكلات زائفة مصطنعة ، وأن الاهتمام بها أشبه بدفع أبواب مفتوحة أو إقامة نوافذ لا تدفع إلى اقامتها إلا الرغبة في التناظر . ذلك أن هاجس العادات يهمس في هذه النفوس قائلا : أوليس الادب قائماً سواء تساءلنا أو لم نتساءل ، وسواء شككنا في رسالة الادب أو لم نشكك ؟ أفلا يقبل عليه الناس ، فيؤدي رسالته إذن حين يتذوقونه ويسيغونه ويجدون فيه المتعة ؟

أما تجاوز التساؤل الى الاجابة ، وأما القول بعد ذلك ان الادب ينبغي ان يكون ذا رسالة اجتماعية ، وان عليه أن يكتب لغاية ، وأن يكون غذاء صادقاً للمشكلات التي في عصره ، فأمرٌ لا يثير المقاومة وحدها وانما يثير معها السخط والثورة لدى بعض الناس . انهم يرون فيه تجديفاً على الادب ورجماً لقدسيته ، وما هم بخاطئين في واقع الامر . فهذه النزعة الجديدة التي تريد ان يدخل الادب معركة الحياة وان يكون دعوة الى الحرية الحقة للانسان وان يتخلى بالتالي عن اعتزال المسئولية ويخرج من قوقعة اللامبالاة ، تحمل حقاً أول ما تحمل على تلك القدسية الزائفة التي يريد بعض الناس ان يهبوها للاديب . فلقد استطاع الادباء في الايام الماضيات ان يوهموا الناس أن الادب شيء فوق الاحكام وفوق التوجيه وفوق المسئولية ، وأن الاديب إنسان لا يجوز المساس باستعلائه بل استطاعوا ان يوهموا الناس أن جوهر الادب هو هـذا الاستعلاء وذلك الاعتزال لجمهور ماجن مستهتر ، وأن الاصل فيه التعالي عن الزمني والارتفاع الى المطلق . انه في نظرهم لا يصف هذا الانسان أو ذاك ، ولا ذاك العصر أو ذاك ، ولا يلتزم القضية هذه أو تلك ، وانما يلتزم شيئاً يتأبى على الحد ويخرج عن الحصر ، يلتزم الحديث عن « طبيعة انسانيـة » مطلقة مزعومة ، والاهتمام بقضية هي فوق القضايا الجريئة ، قضية الفن والجمال .

وكما تصبح بعض الافكار الخاطئة مقياساً للاحكام الصحيحة

حين تنبث وتذاع وتغرس على مدى الايام ، أصبح هذا الوهم حقيقة وغدا لدى كثير من الناس مقياساً اليه يُرجع وبه تقدر الاشياء . ولهذا فهم يرتدون اليه حتى حين يحاولون جاهدين ان يفكروا في بعض الآراء الجديدة التي تطرح امامهم . إنهم يريدون ان يناقشوا القول برسالة للاديب استناداً الى هذه الفكرة التي استقرت ورسخت عندهم وهي ان الادب يتسامى على كل رسالة ، وامتصاصاً من تلك العاطفة الحارة التي تحدثهم عن قداسة الاديب وارتفاعه فوق الشبهات .

والحق ان من الجميل ان يتحدث المتحدثون عن حرية الاديب . وإن في كل دفاع عن الحرية حرارة وقوة . ولكن، ما أشد ما يعرو هذه الحرية من لبس وغموض ، وما أشد ما يختلف الناس حولها ، بل ما اشد ما يتذرعون بها للدفاع عما هو نقيضها ! ولهذا لم يكن من المستغرب ابداً ان نجد هذه الظاهرة الغريبة في حد ذاتها : وهي ان المدافعين عن فكرة الادب للادب والمدافعين عن فكرة الادب ذي الرسالة الاجتماعية يستند كل فريق منهما في التدليل على رأيه إلى فكرة الحرية هذه . فأصحاب الادب للادب يذودون عن حرية الكاتب فيرقون به فوق كل قيد ، فيما يقولون . وأصحاب الادب الاجتماعي يرون أنهم يذودون عن حرية لا كهذه الحرية التي يتحدث عنها خصومهم ، بل عن حرية تحمل المعنى الاصيل لهذه الكلمة .

وهنا جوهر المسألة . فالفريق المنتصر للادب الصرف يرى ان الحرية تكون اعمق فأعمق كلما صدرت عن طبع الاديب وحده ، لا يوجهه في ذلك موجه . وهو يقرر ان الاثر الادبي شيء منفصل حتى عن تقدير الناس له ، بله عن تحديثه إياهم عن مشكلاتهم وعما يعانون . وهم بهذا يقذفون بفكرة قد تغري، لما فيها من حرارة الافكار المطلقة المتعالية . إنها محملة دون شك بشحنة عاطفية تجعل منها منزلقاً سهلاً ينزلق فيه الناس، حين تتحدث عن الادب حديثاً فيه نفحة الاشياء الدينية المقدسة . وهي تكاد تهمس أحياناً ان الفن يكون أقدس وأسمى كلما ابتعد عن الحياة – حياةالقطيع – وعن الاختلاط بها ، بل تكاد تعبر سراً عما قاله « كير كغورد » جهراً ، حين رأى ان الانسان دائرة مغلقة على ذاتها ، إذا هبط المجتمع هبط وتدنى .

أما الفريق الثاني الداعي الى ادب يخوض غمار عصره ، ولا يتقزز من مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه ، فيفهم الحرية فهماً آخر ويفهم القدسية فهماً آخر ايضاً . ان الحرية عنده في الحياة نفسها ، لا في اعتزال الحياة . فهي تشرق حين يخاطب حرية الآخرين ويستنفر نفوسهم . فالادب مخاطبة للنفوس ، ولا معنى له ان لم يكن كذلك . والاديب كما يقول الدكتور طه حسين « لا يكتب لنفسه » وإنما « يكتب لغيره » . واذا كان الامر كذلك فكيف يكتب لغيره ؟ إنه يكتب لغيره حين يكون وسيطاً ينقل الى الآخرين ما يحتاجون اليه ، ويفضح امام اعينهم حقيقة امرهم ، ويجلو لهم واقعهم، ليستصرخ بعد هذا الجلاء حريتهم وينادي إنسانيتهم. ولا يعني هذا ، كما قد يظن ، أن يكرههم على افكار بعينها، وانما يعني أن يفتح آفاق نفوسهم على الافكار الحقة وعلى المنازع الانسانية الحرة ، وان يضعهم امام الحقيقة واضحة ، ليختاروا منها اختياراً تمليه حريتهم التي اثارها على هذا النحو.

واذا كان الاديب ، كما يقول الدكتور طه حسين أيضاً ، « حريصاً أشد الحرص على ان يقرأه ويفهمه ويذوقه أضخم عدد ممكن من الناس » ، فأنى يتأتى له ذلك ان لم يخاطب هذا العدد الاكبر ؟ والخطاب يقتضي أول ما يقتضي أن نقدم للمخاطب ما يسأل عنه وما يعنيه ، أو أن نعرّفه على ما يعنيه وفي هذه الوحدة بين المخاطِب والمخاطَب تكمن حرية الكاتب. فالكاتب يكون ، حين تخلق لديه رغبة في أن ينثّ الناس نجوىً تعنيهم ويشعربها هو شعوراً أعمق وأقوى . إنه وسيط ، كما قلنا ونقول . وما هو بالوسيط بين نفسه وبين حقيقة مطلقة لا ندري ما هي ، وانما هو وسيط بين الحقيقة « المعاصرة » وبين القراء ، ينقلها اليهم في حرية ، ويطلب إليهم أن يطلعوا عليها في حرية . انه لا يستبيح لنفسه ان يكتب لأناس غير احرار، لعبيد مقيّدين بظروفهم . ولهذا كانت اولى مهماته ان يفتّح نفوس قرائه وان ينقل هؤلاء القراء الى مستوى الاحرار . ولا يكون ذلك الا حين يطلعهم على واقعهم الاجتماعي وحين يعمل معهم على وعيهم لهذا الواقع والخلاص من قيوده .

وهكذا يتجلى الفرق واضحاً بين منزعين : اولهما يرى في الكتابة نوعاً من الغناء والتغني ، وضرباً من الحداء والنجوى الداخلية ، ويشفق على الاديب ان يكون شيئاً آخر غير بلبل صدّاح يرقى الافنان غير حافل بما يجري على الارض ، ولا يكف عن الغناء ، ولو كان الناس في سواد الحداد ، ولا

يأبه لمن يصغي اليه ولمن لا يصغي . فهو يغني وهو يجود الغناء والطرب ، وما على الناس الا ان يصغوا اليه او لا يصغوا . وكثيراً ما يزاوج بين الفاظ المعجم ، ويتأنق في هذا الزواج ، ويشعل اللهيب في تلك الالفاظ مستمتعاً بنارها ، محاولاً ان يمتع بذلك ولو قلة من الكتاب مثله ، راضياً الا يعجب به الا كاتب واحد يعنيه رأيه ، أو قراء قلة يفهمون ما يريد . ثم يزعم بعد ذلك انه حر ويدافع عن هذه الحرية دفاعه عن المصير الذي لم يستطع غيره .

وثاني المنزعين هو الذي يعتقد ان مثل ذلك الموقف « الرفيع » ان جاز في بعض العصور الماضية ، حيث الانفصال صارم بين القلة والكثرة ، بين الصفوة والسواد ، وحيث الشعب في نظر الصفوة « ببغاء عقله في اذنيه » كما يقول شوقي (على لسان احد الابطال في قصة كليوباترا) ، فهو غير جائز بحال من الاحوال في هذا العصر الذي دخل فيه الشعب قلب المعركة واصبح عنصراً هاماً من عناصر الحياة الاجتماعية والفنية . ولا يحق لنا ابداً ان نرتضي لادباء اليوم ما ارتضيناه لادباء القرن الثاني عشر الذين كانوا في خدمة رجالات الكنيسة وحدهم ، او لادباء القرن السابع عشر الذين كانوا يكتفون بتقرير الاوضاع الراهنة في عصر محافظ لا يعرف مخالفة القيم السائدة . فذلك الادب الذي يريدون ان يصفوه بالحرية هو المسخّر لخدمة طبقة معينة ، وهو الادب المستعبَد للسياسة حقاً : أفتكون السياسة مقصورة على من يدافع عن الشعب ويعنى بها ، ولا يتّهم بها من يدافع عن الطبقة القائمة الحاكمة او يدعو ، بقوله او بصمته ، الى بقاء الاوضاع السيئة على ما هي عليه ؟ نعم ، لا يجوز ان نرتضي لادبائنا اليوم ما ارتضاه أدباء العرب وشعراؤهم في العصر العباسي مثلا حين كانوا يوجهون ادبهم الى الخلفاء او الوزراء او قلة من الكتاب ، ولا يحفلون بسواد الشعب . ولئن كان ادباء تلك العصور الخوالي معبرين عن وضعهم الاجتماعي اذ ذاك مخلصين لشكل الحياة السائدة عندهم (وهي حياة تقيم هوة بين السادة والسواد) فأدباؤنا اليوم ينبغي ان يكونوا معبّرين عن عصرهم هم وعن مجتمعهم هم ، هذا المجتمع الذي برزت فيه اول ما برزت فكرة استلام الجماهير لمقدراتها وشعورها بمصيرها . وهم سيظلون متخلفين عن هذا العصر ، غريبين عنه حتما ، ان لم ينطلقوا شطر هذه المشكلات التي تطوّف بهم من كل جانب وتطوقهم شاءوا ام أبوا . ولا يعفيهم الصمت تجاهها والتلهي عنها بغيرها ففي صمتهم معنىً وموقف . وما دام فرارهم من عصرهم ومشكلات عصرهم امراً غير ممكن في عصرنا الحديث ، فلينطلقوا اذن نحو هذه المشكلات ولينغمسوا في هذا العصر ، وليزحموا المسائل قبل ان تزحمهم ، وليجعلوا منها ميداناً لبراعتهم وفنّهم . فشرّ الامور الفاتر ؛ والكاتب قد يرتضي لنفسه كل شيء الا الفتور : وهو ان ظل منكراً لهذا الواقع الاجتماعي الذي يغزوه ، ولم يداعبه الا لماماً ولم يعرض له الا ابتساماً ، اوقع نفسه في الفتور لا محالة ، وكان بين بين ، فلا هو مجتنب واقعه ولا هو قابض على هذا الواقع قبض العليم المتذوق . واذ ذاك يشعر بالتمزق ، واذ ذاك يحس بفرار حريته من بين يديه .

وبعد ان المشكلة على هذا النحو قد تبدو مكرورة ، وقد تبدو غير جديرة بان تطرح . وهي حقاً مكرورة ابداً جديدة ابداً . على انها تأخذ معناها الواضح الصريح حين تنصب على الآثار الادبية نفسها . ففي هذه الآثار نجد حقاً ان هنالك ادباً للحياة وادباً جامداً مجانباً لها ، ومن قراءة هذه الآثار نستطيع ان ندرك تمام الادراك الفرق الواضح بين المنزعين اللذين اشرنا اليهما ، منزع الادب للادب والادب للمجتمع . ومن الصحيح كل الصحيح ما قرره الدكتور طه حسين حين طلب الى الكتاب ان ينتجوا بدلاً من ان يفكروا ويبحثوا في النظريات . فالنتاج وحده يحكم بين النزعات الادبية ، ويحكم بين النزعتين خاصة . على ان تبين الادب طريقه حين يتحدث عن النظريات لا يعني ابداً افلاس الادب والادباء ، ومعذرة من الدكتور طه حسين . فهذا حديث كثيرا ما ينبيء عن مخاض ادب جديد . وان كان الادب يمر في ازمة عالمية ، فيما يبدو ، فما ذلك الا لكونه في مفترق طرق ، ولانه يريد ان يحمل منازع جديدة ويستجيب لهذا التطور الاجتماعي المفاجيء الذي مر به العالم . فالادب القديم لم يعد يروي ظمأ الجماهير الشعبية ، والادب الجديد يريد ان يتلمس طريقه ومنهجه قبل ان يمضي موغلاً .

واخيراً ، هل من حاجة الى ان نقول للمختلفين حول رسالة الادب ان مجتمعنا العربي ينتظر من ادبه الجديد الشيء الكثير لينقذه من محنته ، وان اختلافهم لا بد ان ينتهي الى اقرارهم جميعاً بان هذا المجتمع الذي يعيشون فيه يحتاج الى مهاد ادبي يبعث فيه حياة قومية سليمة ؟ ان الحر منهم هو الذي يعرف ان يقف هذ الموقف الامين ، اما المستعبد للسياسة فهو الذي يتدرع بدرع الحرية المزعومة ويلبس لبوس الادب الخالص فيما يقول ، ليبتعد عن الاسهام في معركة شعبه وليكون بذلك عوناً لمن يروق لهم ان يظل جاهلاً لقضيته وان يعيش في الظلمات .

دمشق

عبدالله عبد الدائم